العلاقة بين بغداد والقاهرة
فى عهد الفواطم

للأستاذ عبد المنعم ماجد

لم تكن هناك فروق تميز أهل البيت من بنى العباس وبنى علىّ ، حتى وقت قيام الدولة الأموية على يد معاوية بن أبى سفيان الذى جمع فى يده سلطة قوية وحوّل الخلافة من بساطتها وديمقراطيتها إلى نوع من الأرستقراطية المتعجرفة المتعصبة ، لذلك أطلق العلويون على أنفسهم لقب الشيعة وعُرف أعداؤهم باسم بنى أمية . أما إسم أهل السنة فلم يكن له وجود ولم يظهر إلا بعد قيام الدولة العباسية . وبالرغم من أن العباسيين لم يكونوا قد طالبوا بالخلافة لأنفسهم أيام الخلفاء الراشدين إلا أنه أثناء قيام الدولة الأموية فى أواخر عهدها التجأوا إلى الدعوة للرضا من آل محمد ، أى من يقع عليه اختيار آل البيت يصير هو الخليفة . وقد وجدت هذه الدعوة أذناً صاغية وقبولا من الشيعة ، وذلك لأنهم كانوا يأملون أن تؤول الدعوة إلى بنى علىّ ، وذلك لأن علياً كان أفضل من العباس باعتراف معظم أهل البيت لأنه زوج بنت رسول الله ولسيرته وسبقه فى الاسلام . أما العباس فلم تكن له سابقة ولا سيرة ... ثم بجانب هذا لم يكن العباس ولا ابنه عبد الله قد طالبوا بالخلافة ... ولكن لما نجحت الدعوة التى بشر بها أبو مسلم الخراسانى فى خراسان ، وانتهت بقلب الخلافة الأموية والإجهاز عليها فى موقعة الزاب حوّلوا الخلافة لأنفسهم وأقصوا الشيعة عنها وادعوا أن العم أحق بالخلافة من ابن العم ، ولذلك كانوا يرون أى فتق يجىء من غير ناحية العلويين سهل الرتق . أما هؤلاء أبناء علىّ فهم الخصم الألد الذى يخاف جانبه ويُخشى بأسه ، ولذلك طاردوهم ، وشردوهم ، وضيقوا عليهم الخناق .

إزاء هذا التعنت الذى صادفوا به ذرعاً أخذ العلويون من أبناء فاطمة يدعون لأنفسهم سراً ؛ ليستردوا هذا الحق المغصوب ويقضوا على هؤلاء الذين أقصوهم عن حقهم الشرعى فى الخلافة ، فلما ضاقت بهم وبدعوتهم أرض المشرق اتجهوا للمغرب حيث كان مركز الخلافة ضعيفاً ، ونجحوا فى تأسيس دولة هناك ، وكان هذا مبدأ الاحتكاك الفعلى بينهم وبين العباسيين ، وأول ضربة توجه للخلافة العباسية فى جزء من أملاكها فى أفريقيا من أبناء فاطمة بالذات . . ولن تكون الضربة الأخيرة ... ! !

لأن غرضهم الأساسى كان القضاء على الخلافة العباسية التى اغتصبت ملكهم وشردتهم وطاردتهم . هذا فضلا عن رغبتهم فى نشر دعوتهم ونظرياتهم فى الدين . لذلك شهر المز لدين الله الفاطمى سيفه فى وجه العباسيين ، وطمن الخلافة فى مصر والشام والحجاز واليمن ، ومنع الناس فى هذه الأرجاء لبس السواد شعار العباسيين ، وخطب له ولخلفائه على المنابر ، وارتفع صوت المؤذن منادياً : « حىّ على خير العمل » ، وهو آذان خاص بالفاطميين كما ظهر بطبيعة الحال كفاح وتنافس وحزازات بين الدولتين شأن كل قوتين تعتقد كل منهما أنها أحق بالخلافة والسلطان دون الأخرى . وسنلخص العلاقة بين هاتين القوتين المتراحمتين فى ثلاث مراحل :

الأولى — تبدأ حيث عاصرت فيها الدولة الفاطمية عظماء بنى بويه وهم المتربعون فى الحكم فى بغداد والمتغلبون على الخلافة العباسية فيها .

الثانية — التى عاصرت فيها الدولة الفاطمية البويهيين إبان ضعفهم .

الثالثة — التى عاصرت فيها الدولة الفاطمية الدولة السلجوقية التى انتزعت الحكم من الدولة البويهية .

الفترة الأولى :

تبدأ من سنة ٢٥٨ هـ وهى السنة التى دخل فيها الفواطم مصر إلى سنة ٣٧٢ هـ أى إلى موت عضد الدولة البويهى آخر عظماء البويهيين .. استولى الفاطميون على مصر والشام ومست حدود الدولة الفاطمية أملاك العباسيين التى كانت آنذاك تحت رحمة البويهيين وهم الذين ملكوا زمام الدولة وصارت بيدهم

مقاليد الأمور منذ سنة ٣٣٤ هـ أو سنة ٩٤٥ م فاسمهم يقرن باسم الخليفة العباسي في خطب المساجد ، وتضرب الدفوف أمام القصر الملكي البويهي في الضحى والعشي ، وهذا تكريم لم يكن يحظى به غير الخليفة من قبل ، والبويهيون متشيعون كالفاطميين بل من الشيعة الغالية التي لا تعترف بالخلافة العباسية رغم سيطرتها عليها . بل وتعتبرها مغتصبة من العلويين الذين هم أحق بها في نظرهم ، ولذلك في مناسبات عدة يعملون دائماً على إذلال الخليفة العباسي وإشعاره ببطلان خلافته ؛ فمثلا الخليفة القاهر عُزل والمستكفي سُمل والطائع أهين ، والمطيع عزل حتى قال ت . و . أرنولد في كتابه الخلافة :

" The lowest depths of degration that the Caliphate of Bayhded had ever reached "

ومعنى هذا أن الفواطم حيما امتد ملكهم شرقاً وجدوا تشيعاً في بغداد ، ومركز الخلافة والأراضي الخاضعة لها في العراق والمشرق ، وأن صاحب هذا التشيع هو صاحب الأمر والنهي ، وكان هذا بطبيعة الحال من شأنه أن يقرب بين الفواطم في مصر والمسيطرين على بغداد أصحاب الأمر والنهي ، وأن يوجد نوعاً من العلاقات الحسنة بينهما ، وإن كانت العلاقة الطيبة تظهر من ناحية البويهيين أكثر جلاء من ظهورها من ناحية الفواطم ، وكان هذا طبيعياً لأن الخليفة الفاطمي كان يُعد في نظرهم إمامهم والرمز الروحي لهم ، وهو من النبعة الطاهرة التي يدينون بنحلتهم لها . نلمس هذه الروح والميل الصريح نحو الفواطم مما حاوله معز الدولة البويهي بالكشف عما في قلبه بالبيعة للخليفة الفاطمي لولا أن أشار عليه أصحاب النظرة البعيدة من أتباعه بتركه هذا الأمر خوفا على سلطانه وسلطانهم ، ونفوذه ونفوذهم[1] فالخوف هو الحائل الوحيد في سبيل إعلان الفاطميين أئمة عليهم ؛ ومع ذلك فالخضوع الروحي للفواطم كان يملأ في كل مكان وتحت سمع الخلافة السنية وبصرها ؛ فبدأ الاحتفاظ بسطوتهم في بغداد لا يتنافى أبداً مع إظهار ولائهم للفاطميين ، ولعل العلاقة الرسمية لم تكن من القوة والصفاء مثلما كانت في عهد عضد الدولة البويهي . وقد احتفظ لنا أبو المحاسن[2] برسالة من العزيز الفاطمي رداً على رسالة عضد الدولة فيها يشكره على ولائه وخضوعه ، وقد انتهز عضد الدولة هذه الفرصة ووصول مندوب العزيز بهذا المكتوب ليُذل الخلافة السُنية فأمر المطيع وهو الخليفة السني آنذاك بالخروج لاستقباله . بل تمادى عضد الدولة وقرأ الرسالة مع ما تحمله من خضوع سافر وولاء ظاهر للفواطم في حضرته حتى دهش أبو المحاسن وتعجب ، وإن كان ليس هناك ما يدعو للعجب لاجتماع البويهيين والفواطم في رمز واحد وإمام واحد هو « علي » . ويجمل بنا أن نعرض بعض ما جاء في هذه الرسالة ففيها « ... إن رسولك وصل إلى حضرة أمير المؤمنين مع الرسول المنفذ إليك فأدى ما تحمله من إخلاصك في ولاء أمير المؤمنين ومودتك ومعرفتك بحق إمامته وعبتك لآبائه الطائعين الهادين المهديين .. ثم ذكر كلاماً طويلا في المعنى » . أما بقية الكتاب فيستدل منها على أن العلاقة لم تقف عند تبادل عبارات المودة والصداقة بل تعدتها إلى تبادل الرأي والمشورة فيما يحيط بهما في العالم الإسلامي من خطر خارجي .

هذه هي مظاهر العلاقة الرسمية بين بغداد والقاهرة .. وهناك مظاهر أخرى لها تتمثل في اشتراك أهل مصر من الشيعة وبغداد في بعض الأعياد الدينية مثل النوح في أيام عاشوراء ، وهذه الظاهرة استمرت منذ أن استقر البويهيون في العراق ...

هذه هي مظاهر التفاهم بين بغداد والقاهرة ، والتي كانت نتيجة للرابطة التي بينهما كما ذكرت فخلقت هذه المعاملة الحسنة كما أنها هي التي منعت كلا من الفاطميين والبويهيين على أن يقضي الواحد منهما على الآخر ، وذلك بالرغم من أن غرض الفواطم الرئيسي كان تدمير العباسيين المغتصبين للخلافة ، ولكنهم لما وجدوا تشيعاً في بغداد مالكا لها أحجموا عن اتخاذ هذه الخطوة العدائية . ولكن مع هذا لم تكن العلاقة صافية تماماً في هذه الفترة ، لأن وجود قوتين متواجهتين يؤدي حتما إلى نوع من التنافس قد يتعدى إلى حوادث أخرى وبخاصة في أول هذه الفترة ، ولكن رغم تقلب الحوادث سرعان ما تعود الأمور إلى مجراها بحكم اتفاقهم في المبدأ ؛ فمثلا نرى عز الدولة باختيار قد أمدّ القرامطة بالمال والسلاح عند ما تقدم الفواطم وكادت نارهم تلفح وجه العراق وقد كان مدفوعاً

(١) ابن الأثير ص ١٧٧ الجزء الثامن
(٢) الجزء الرابع النجوم الزاهرة ص ١٢١

لاتخاذ هذه الخطوة خوفا على ملكه ، ولكن سرعان ما عادت الحال إلى الصفاء بعد ذلك . إذ ظهرت بأجلى صورها فى عهد معز الدولة وعضد الدولة .

الفترة الثانية :

تأتى هذه الفترة بعد عضد الدولة إلى نهاية الدولة البويهية . كان طبيعياً أن العلاقات الحسنة بين بغداد والقاهرة والتى استمرت على أتم صفاء ، وبلغت أقصاها فى عهد معز الدولة ، وعضد الدولة ألا تستمر إلى الأبد ، لأن السلطان البويهى الذى كان عاملا مهماً على التفاهم بدأ يضعف ، أصبح الخلفاء العباسيون قادرين على التدخل فى أمور الدولة والسياسة وانتهزوا فرصة هذا الضعف لاظهار ما يكنون من عواطف البُغض والحقد للدولة الفاطمية . لذلك يجب أن نعتبر أن العلاقة فى هذه الفترة على نقيض الفترة السابقة إذ اتخذت مظهراً آخر من القسوة والكفاح وظهرت نيات الطرفين واضحة بالبغضاء . ولعل أول مظهر لاسترداد الخلفاء العباسيين سلطانهم المفقود هو منعهم (كما يذكر أبو المحاسن) الرافضة من أهل الكرخ والطاق من النوح فى يوم عاشوراء ومن تعليق المسوح ، ولكن هذا التحرر نوعاً من قيود البويهيين لا يُعنى أن الخليفة العباسى قد أُطلقت يده أو أن فى استطاعته أن يعمل شيئاً إيجابياً فهذا من المحال . لأن الخلافة العباسية كانت فى أخريات أيامها عاجزة عن كل هجوم إيجابى على من قاسموهم سلطانهم وإن كانت لا تعجز عن الهجوم بسلاح آخر هو سلاح الكلام ، والطعن فى نسبهم إلى فاطمة ، خاصة أن الدولة تأسست على هذا الإدعاء ، وكانت دعوتهم قبل أن ينشرها داعيتهم أبو عبد الله الشيعى سرية ، وذلك خوفا على أئمتهم المستورين من ولاة العباسيين فى ذلك الوقت فساعد هذا الجو على الطعن فى الظلام ، ولذلك صدر محضران الأول فى سنة ٤٠٢ هـ فى عهد القادر بالله المعاصر للخليفة الفاطمى المستنصر وذلك بعد مضى قرن على إنشاء الدولة الفاطمية ، وقد قرئت هذه المحاضر المملوءة بالقدح فى نسب الفاطميين ونسبهم إلى مجوس ، فى المساجد وأعلنت للناس . ولا يعنى هذا التجريح فى نسب الفاطميين بعد قرن أنه لم يكن موجوداً قبل ذلك أى قبل المحاضر فقد أيد هذا الطعن فى نسبهم بعض المؤرخين أمثال ابن خلدون ، وأما سبب ظهور هذا الطعن بعد مضى قرن فيتحصل كما يظهر للأستاذ الأمير مامور فى كتابه :

"Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs"

١ — الكراهة المتأصلة فى العباسية من نسل على وفاطمة .

٢ — المرارة من مقاسمتهم أملاكهم وذلك حينما هددوا سلطانهم .

٣ — الحقد الذى تولد من منافسة القاهرة قاعدة الفواطم لبغداد قاعدة العباسيين كمركز للعلم والثقافة والفن والأدب الاسلامى

٤ — الخوف من امتداد سلطانهم لما بقى فى أيديهم .

٥ — الفرصة سواتية لاختلاف العلويين وعدم تضامنهم . فهذه هى الاثنا عشرية والفواطم والأدارسة .

٦ — إمكان التأثير على بعض العلويين وضمهم لجانبهم .

٧ — كذلك البويهيون لايعانون ؛ لأنه قد نالهم الضعف فقدروا الخطر الفاطمى حقّ قدره .

٨ — إمكان إثارة العناصر السنية التى توجد فى الأجزاء التى امتلكها الفاطميون .

٩ — إعلان هذه المحاضر فى مثل هذه الظروف يضعف نفوذ الفواطم ، ومن ناحية ثانية فهولا ضرر منه على العباسيين .

١٠ — ملاءمة الوقت لوجود خليفة مكروه وهو الحاكم .

على أية حال كتب المحضران ، وحرص الخليفتان على أن يوقع عليهما كبار العلويين والقضاة والفقهاء وذلك حتى يحوز الطعن بعض الأهمية ولايتسرب الشك إلى الناس ويذكر مامور فى كتابه رأى بعض المؤرخين فى المحاضر ؛ فمثلا قال جرايف فى دائرة المعارف الإسلامية « لم يظهر الشك فى نسب الفاطميين إلا فى وقت متأخر ، وكما يظهر بوضوح أراد العباسيون اتخاذ أى وسيلة شرعية للقضاء على منافسيهم الخطرين » .

(البقية فى العدد القادم)

عبد المنعم ماجد